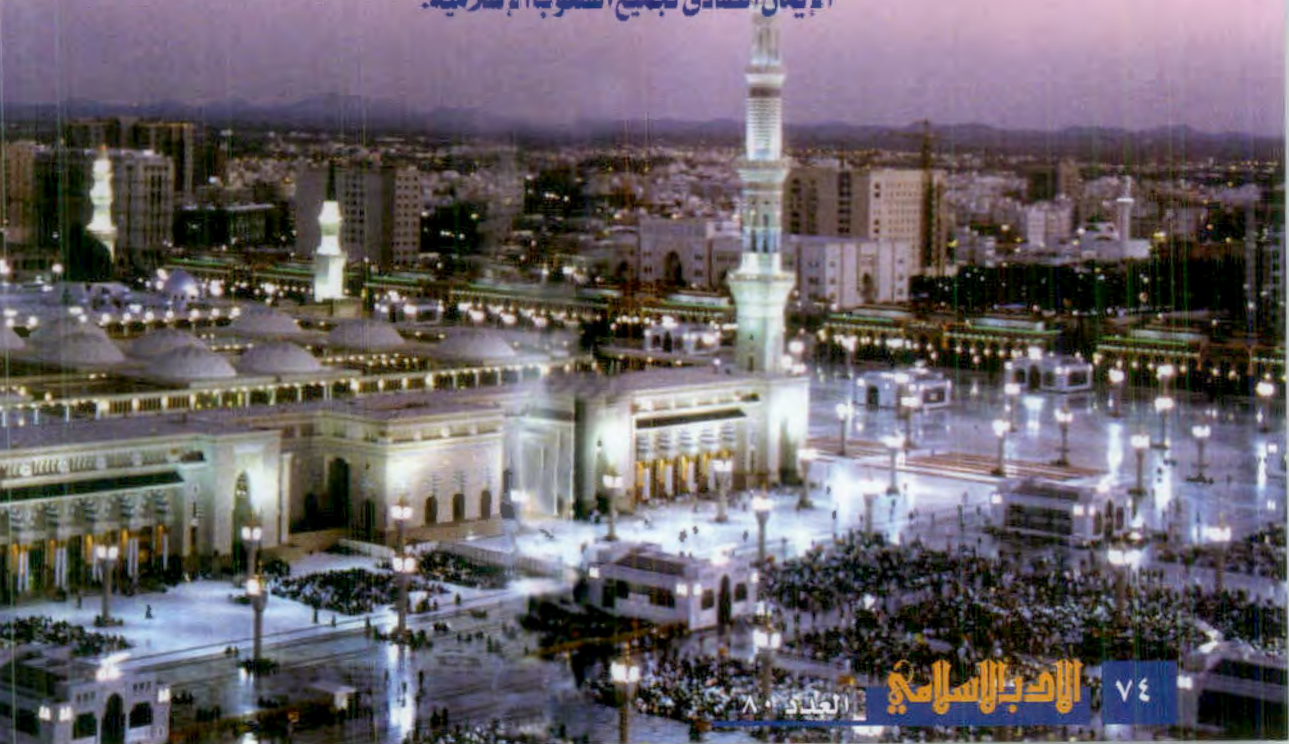


# قراءة في كتاب «الطريق إلى المدينة» للتشيخ أبي الحسن الندوي

«الطريق إلى المدينة» لأبي الحسن علي الحسيني الندوي كتاب يفيض بالوجدان والعواطف الجياشة، نقرأ في أولى صفحاته مقدمة يبين فيها المؤلف غايته من الكتاب، فهو يجند نفسه لمواجهة ثورة يقودها العقل الفلسفي بدت في بلاد كانت مصدر الإيمان والحنان والعاطفة، وكذلك مواجهة ضعف الصلة الروحية والعاطفية بالنبي ﷺ، في وقت تمألت عوامل كثيرة ودعوات عديدة على تجفيف منابع تلك الصلة أو إضعافها على الأقل، وهو ما يعد خطراً كبيراً يمهّد لكل ضعف ولكل اضطراب ولكل أنواع الفوضى.. فجمع في سبيل هذا الأمر كل ما ألقى من محاضرات وأحاديث، وما كتب من مقالات في شخصية النبي الكريم، وعرض أشواق شعراء الإسلام وأشعارهم والمحبين في ديار العجم. وهب يذكي الجمرة الإيمانية والحب الدفين للرسول الكريم، ويمهد الطريق إلى مدينة الحبيب المصطفى، ويبعث الأشواق إليها وإلى منورها عليه أفضل الصلاة والسلام، فطالما كانت منبع الحب الطاهر، ومصدر الإيمان الصادق لجميع الشعوب الإسلامية.



زكريا عمر - سورية



دموعهم لهفة لمواطن أهدتهم: إذ «كيف لا يذوب قلب المسلم شوقاً إلى البلد الذي وطئ أرضه (محمد) ﷺ حبيب كل مسلم يمشي من حيث مشى الحبيب، ويصلي حيث صلى، يدخل من حيث دخل يوم هاجر من مكة، ويخرج من حيث خرج يوم ذهب إلى أحد....».

ويقول الشيخ في صاحبه المؤلف الذي طلب منه أن يكتب مقدمة للكتاب: «أما المقدمة التي طلبتها فأعفني منها، لأنك لست في حاجة إليها، ولا يحتاج إليها هذا الكتاب» فكما تقول العامة في الشام: «المكتوب يعرف من عنوانه».

### «الكتاب الذي لا أنسى فضله»

وفي مقال بعنوان «الكتاب الذي لا أنسى فضله» - وهو حلقة من سلسلة «الكتب التي عشت فيها» كتبها المؤلف لمجلة البعث الإسلامي - يعرض فيه علاقته ونهمه بكتب السيرة النبوية منذ نعومة أظفاره، إذ كان أخوه الأكبر الذي تولى تربيته وتنقيفه بعد وفاة والده وهو في سن

يقع الكتاب في ١١٨ صفحة، وصدر منه ثلاث طبعات، وترجم إلى اللغتين التركية والأردية الهندية. وكان من حسن أدب المؤلف أنه اعتذر إلى صديقه محمد أسد صاحب كتاب «الطريق إلى مكة» الذي أخذ منه فكرة تسمية كتابه «الطريق إلى المدينة».

أما موضوعات الكتاب فيتصدرها عنوان «تقديم» للشيخ علي الطنطاوي، وهو ليس كأبي تقديم، وإنما عنوان الكتاب «الطريق إلى المدينة» هزه وعاد به إلى الوراء ثلث قرن كامل، فأجج أشواقه وحنينه، وبدأت تموج في نفسه خواطر كثيرة، ويستذكر مشاق السفر يوم كان براً الأسابيع طوال، فيرى نفسه في البادية، بادية الحجاز، وقد مرت عليه وعلى صحبه فيها خمسون يوماً تتلظى من فوقهم شمسها، وتتضرم من تحتهم رمالها، يحرقهم العطش، ويروعهم الضلال، وقد تجمعت آمالهم كلها وأمنياتهم في أمل واحد، وأمنية واحدة: هي أن يروا المدينة المنورة التي تخفق قلوبهم شوقاً إليها، وتهطل



...وأعترف أنني لا أستطيع حتى اليوم أن أصفها بدقة، وأعبر عنها بكلمة، إن غاية ما أستطيع أن أقول: إنها لذة الروح، وهل الأطفال لا يحملون الأرواح؟ ولا يشعرون باللذة الروحية؟ بلى والله! إن الأطفال أشف روحاً، وأصح شعوراً، وإن عجزوا عن التعبير».

ويرى المؤلف أن هذه المشاعر والعواطف الجياشة لا نجدها عند المسلمين في العصر الحديث، فمضحية هذه الأمة البائسة أنها قطعت صلتها عن القلب، وحرمت لذة الحب، وقد صدق شاعر الإسلام محمد إقبال إذ قال: «إن كارثة المسلمين في هذا العصر أنهم يحملون القلوب ولا يعرفون المحبوب، إنهم يملكون مادة الحب، ولا يعرفون من يشغلونها به، ويوجهونها إليه».

«محمد إقبال في مدينة الرسول ﷺ»  
ويتحدث المؤلف في الصفحات التي حملت عنوان «محمد إقبال في مدينة الرسول ﷺ» عن شاعر الإسلام وفيلسوف العصر الذي فاضت قريحته الشعرية في حب النبي الأعظم، وهو الذي لم يقدر له زيارة المدينة المنورة لكبر سنه ومرضه، ولكنه رحل إلى المدينة بغياله القوي، وشعره الخصب، وقلبه الولوع، فخلق في أجوائها، ومثل

بين يدي الرسول ﷺ، فتحدث عن نفسه وبلاده والفترة التي يعيش فيها، وعن أمته والأزمات والمشكلات التي تعانيها، وما فعل بها الزمان وطوارق الحدثان، وما فعلت

التاسعة، يختار له الكتب التي ينبغي أن يطلعها، فتشأ على حب السير والعقيدة وغرس الإيمان.

ونقرأ في هذا المقال أثر كتب السير في نفسه، وكيف أثارت في قلبه كامن الحب للحبيب المصطفى عليه أفضل

الصلاة والتسليم، فمرة يقع بصره على اسم كتاب «رحمة للعالمين» وهو في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، وهو طفل يتيم لا يملك ثمنه ليشتريه، فيرق قلب أمه الحنون له فتجتهد في دفع قيمة الكتاب، وبعد أن يحصل عليه يقول: «بدأت أقرأ الكتاب، وبدأ الكتاب يهز قلبي، وليست بهزة عنيفة مزعجة إنما هي هزة رقيقة رفيقة، وبدأ قلبي يهتز له ويضطرب:

كما اهتز تحت البرد الفصن الرطب

وهذا هو الفارق بين هزة الكتب التي ألقت في حياة الأبطال الفاتحين الكبار، وبين هزة الكتب التي ألقت في سيرة الرسول الأعظم ﷺ، فالأولى هزة تغير القلب وتزعجه، والثانية هزة تنبعث من النفس وتريحها».

وبعدها ينتقل المؤلف ليصف شعوره بلذة غريبة في أثناء قراءته للكتاب، إنها لذة تختلف عن جميع اللذات التي عرفها في صغره، فهي

ليست كلذة الطعام الشهوي في الجوع، ولا لذة اللباس الجديد في يوم العيد، ولا هي لذة الانتصار في المباراة... فهو يعرف طعمها ولا يستطيع وصفها، ويقول عن ذلك:



الشيخ أبو الحسن الندوي



محمد إقبال

بها هذه الحضارة الغربية والفلسفات المادية.

ويسرد المؤلف في وصف بديع رحلة شاعر الإسلام إلى المدينة وهو شيخ مريض، والسفر شاق على من كان في مثل سنه، إلا أنه يلبي منادي الشوق، ويقول في ذلك: «توجهت إلى المدينة رغم شبيبي وكبر سني، أغني وأنشد

الآبيات في سرور وحنين، ولا عجب! فإن الطائر يطير في الصحراء طول نهاره، فإذا أدبر النهار وأقبل الليل رفرف بجناحيه وقصد وكره ليأوي إليه ويبيت فيه».

ورغم ما اعترى طريقه من سهر وعناء وقلة طعام وشراب فإنه يطوي المسافات حتى يصل إلى المدينة المنورة بعد طول فراق وشدة اشتياق، ولا يلبث وهو في غمرة السرور والسعادة أن يذكر أمته المسلمة، يذكر آلامها وآمالها، ويذكر الفرق بين ماضيه العظيم وحاضره القاسي الكالغ، ويذكر أيضاً الفتنة اللادينية، والفلسفة الاقتصادية المادية التي توجهت إلى العالم الإسلامي، ثم يستعرض تاريخ المسلمين فيرى فيه ما يخل كل مسلم، يرى فيه ما لا يتفق في الرسالة المحمدية وتعاليمها ومثلها العليا، كما يعلن تمرده على الحضارة الغربية وأسسها المادية، وتفلته من شباكها، واحتفاظه بعقيدته وإيمانه وخصائصه.

«وفود الأمة بين يدي نبيها ﷺ»

وهنا يستحضر المؤلف علماء الأمة الإسلامية القدماء من أئمة العلم وعباقره الإنسانية وزهادها،

وأئمة اللغة والنحو والبلاغة، فضلاً عن سلاطين العالم والملوك العظام الذين عرفهم التاريخ، وكأنهم عاشوا من جديد، وجاؤوا وفوداً يدخلون على النبي عليه الصلاة والسلام، وقد يدخل من باب جبريل، وقد يدخل من باب الرحمة، وثالث يدخل من باب النساء، وآخر من باب عبد العزيز، يسلمون عليه، ويقومون بواجب الإجلال والتكريم، ويشهدون له على اختلاف طبقاتهم بأنه هو الذي أخرجهم بإذن الله من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

«من غار حراء»

ومن العناوين التي نقرأها في هذا الكتاب عنوان سماه المؤلف «من غار حراء» يصور فيه ما كان في هذا المكان المتواضع، وما خرج منه للأمة الإسلامية، ففيه أكرم الله بالرسالة محمداً ﷺ، ونزل عليه الوحي الأول، وطلعت الشمس التي أفاضت على العالم نوراً جديداً وحياة جديدة. ثم يذكر فضل الرسالة المحمدية وأثرها العظيم في الحياة والإنسانية التي كانت العقول والقلوب والضامير وكذلك المحاكم والمدارس والأسر فيها أفضالاً معقدة وأبواباً مغلقة، فكان المفتاح لتلك الأفضال هو الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر.

«ميلاد عام جديد»

وهذا حديث قدمه المؤلف عبر إذاعة دهلي، وطرح



المنورة، وصلاته في المسجد النبوي، وسلامه على الحبيب المصطفى، وشهادته له أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين، وسلامه على صاحبي الرسول الوفيين الأمينين، وزيارته للبقيع القطعة الصغيرة التي تحتضن أعظم ثروة في الصدق والصفاء والخلة والوفاء، إذ إن هناك رجال آثروا الحياة الآخرة على الدنيا، وآثروا الغربة في سبيل الإيمان والعقيدة على البقاء في الوطن في سبيل الشهوة والراحة، وآثروا جوار الرسول الكريم على جوار الأحبة والأقارب، فلم يبغوا عنه حولاً، ولم يطلبوا له بديلاً.

ويعرج أيضاً على أحد، القطعة التي مثلت أروع رواية، وأعظمها تأثيراً على تاريخ الإنسانية، رواية الإيمان واليقين، رواية البطولة والوفاء، رواية الحب الطاهر والولاء النادر.

ويختتم مقالته بالقول: إن الحديث عن الحجاز له لون خاص، إنه يدور حول رجله العظيم، ويتصل برسالته وتاريخه، إنه حديث عن مهد الإسلام وبلد الرسول ﷺ.

### «البعثة المحمدية»

هذه المقالة مقتطف من رسالة للمؤلف بعنوان (معقل الإنسانية) وفيها أظهر ملامح من البعثة المحمدية وآثارها على البشرية، إذ بعث محمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ في مكة قلب العالم المتمدن المعمور، فأرسل صيحة دوت بها الغابات، وجاوبتها الجبال، وذلك قوله: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، كلام وجيز يحمل في أنثائه عالم المعاني والحقائق.

### «صلة مسلمي العجم بالنبي العربي ﷺ»

يخصص المؤلف هذه المقالة للرد على

فيه عدة تساؤلات عن أعظم الأيام في التاريخ التي تستحق التقدير والإجلال من مثل: ما هو اليوم الذي ولدت فيه الأمة العربية ولادة جديدة؟ وما اليوم الذي تتجدد فيه الأمل في الإنسانية ومستقبلها؟ وغيرها من الأسئلة... ويجب بقوله: إنه اليوم الذي ولد فيه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ، اليوم الذي يحق أن تتشد فيه الإنسانية في اعتزاز واهتزاز وبلاغة إيجاز:

### ولد الهدى فالكائنات ضياء

### وفهم الزمان تبسم وثناء

### «في مهد الإسلام»

يستعرض المؤلف في هذه المقالة ذكرياته في الحجاز متحدثاً عن مكة المكرمة والمدينة المنورة وانطباعه عنهما وحنينه منذ الصغر لزيارتهما، ويستعيد تفاصيل رحلته في الحج، إذ غادر مكة المكرمة متوجهاً إلى المدينة المنورة على جناح الشوق يحده حادي الحب والوفاء، متحملاً متاعب السفر، ومتمثلاً الراكب الأول الذي ملأ الفضاء نوراً وسكينة، ويصف بالتفصيل وصوله للمدينة





زائرُونَ عند جبل أحد

الكاتب المصري أحمد حسن الزيات الذي أثار استنكار جميع أصحاب التضامير والإيمان في العالم الإسلامي وسخطهم، كما يعبر عن حمية وغيرة مسلمي الهند والبلاد الأعجمية ومدى ارتباطهم بالمقام النبوي الشريف.

وكان الزيات قد كتب مقالة في مجلة الأزهر حاول المقارنة فيها بين الوحدة (المحمدية) والوحدة التي دعا لها حاكم مصر جمال عبدالناصر في نهاية الخمسينيات الميلادية من القرن الماضي، وبلغت فيه الوقاحة أن يعلن رجحان وحدة ناصر في الميزان، باعتبارها وحدة باقية نامية، أما الوحدة التي دعا إليها محمد ﷺ، فمعرضة للضعف والتحول. ويقول المؤلف عن ذلك معلقاً: «يا ليت له لم تلده أمه،

ويا ليتنا لم نعش لنسمع ذلك!». ويضيف: «يا حسرتاً! إن مصر التي لا يقل عدد المسلمين فيها عن ٩٠ في المئة ودينها الرسمي لا يزال الإسلام، ولم تكن وطنيتها وحكومتها إلا منحة من منح رسول الله ﷺ الكثيرة، استطاع فيها منافق أن يرجح كف حاكم مصر على كفة سيد البشر، وهو في وسط علماء الأزهر الشريف، ولا يستطيع رجل في طول البلاد وعرضها أن يرفع صوته بقوله: أين الثرى من الثريا، وأين الضريح من الضراح، وأين فقايع الماء من نبوة خالدة لا تغرب شمسها ولا يأفل نجمها؟!».

### «شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم»

يعرض المؤلف في هذه المقالة بعض ما كتبه شعراء العجم في مدح النبي ﷺ والحنين إلى مدينته، وما تغفوا به وفاضت به قريحتهم، وشاء شوقهم، وحبهم وإيمانهم.

ويشير إلى أن اللغة الفارسية كانت أسعد اللغات حظاً في المدائح النبوية، وتليها لغة الأردو، مؤكداً أن

ما قيل في إيران والهند يمتاز عن غيره قوة وتأثيراً ورقة وعذوبة. وقد تجلت فيه العاطفة أقوى وأروع منها في غيره، وقد ابتكر الشعراء معاني وأخيلة، وجاؤوا بتعبيرات لم يسبقوا إليها، ولا يزال السر في ذلك موضوع تفكير الباحثين وعلماء الأدب.

ويتوقف عند بعض الأسماء الشعرية التي كتبت المدائح النبوية، ومنها الشيخ السعدي صاحب كتابي (كلستان، وبوستان)، ثم الشيخ فريد الدين العطار صاحب الدواوين السيرة والكتب المقبولة، وشاعر الهند الأمير خسرو، ثم عبد الرحمن الجامي وهو من أكبر شعراء المديح النبوية في التاريخ الإسلامي، وقد تغنى بشعره أهل القلوب والعلماء والأدباء في البلاد التي تفهم الفارسية، ومما قاله:

«يا من نسبه عربي، ولقبه أمي، لقد دان بولائك، وخضع لسيادتك العرب والعجم سواء، إن فصاحتك استأثرت العرب، وإن ملاحتك ملكت قلوب العجم. ما ضرك أن لا تقرأ ولا تكتب، فبفضل جهودك وبعتك تعلم الأميون، ونبغ الجاهلون، بك ابيضت صحيفة الأعمال،

# نور المدائن

مها المحمدي - المدينة المنورة

نور المدائن.. عبق الشمس

هل يحقق الفاس الفخار؟

أرسلت طريفي باحثاً

فسرى على آثاره فكري

والحب في أقمى الضمير

والحب مصدره العيون

ولربما حقق السمع

ولربما شهدت عيون الصخر من حش

سهم أصاب القلب من (أحد)

أه على (أحد)

هو واضلي.. ضيقت كل التواضيل

وقصبت روجي بقيد زفيره

بأثيئه التوصل..

ويحبنا ونحبه..

جبل أضمر لا.. والإله

له مهجة وصباية وهوى يغالبه

ويحتله الحنين

\*\*\*

نور المدائن

أنا نلت في دنيا الخيال

بن الديار؟

مئلتها في خاطري يا خاطري

هي متحف للتأمل المتأمل

صور التي لمحمد

ومحمد في ذا التراب

مازلت أحسب من خطاه الذكريات

أمشي بعقلي قارة

ويخط قلبي في الهواء

بتناثر الدمع السخين

وأشرق نورك في الظلمات، فلا ضير أن لا تخط سواداً  
على بياض، أو تضم سواداً إلى سواد.

ومن الشعراء الذين ذكرهم المؤلف شاعر الهند  
أسد الله خان غالب، والأستاذ مسعود علي المحوي،  
ومحسن كاكوري، وأطاف حسن، وظفر علي خان،  
واقبال أحمد سهيل، وحفيظ الجالندھري، وماهر  
القادري الذي قال: «هبت نفحات الرحمة، وتحققت  
أحلام البشرية، وسقيت الأرض المجدة القاحلة  
بوابل من جوده وكرمه وأخلاقه، فأضاء رعاة الإبل  
شموع الحضارة، وجعل الأشواك أزهاراً، وذرات  
الصعراء كواكب ونجوماً».

واختتم المؤلف حديثه بالشاعر والأديب والفيلسوف  
والسياسي محمد إقبال وأفرد له باباً خاصاً، عرض فيه  
شعره في المدح النبوي، واعتزازه بالإسلام، وحبه للمدينة  
ومنورها النبي الأعظم. وقد عدّ شعره باللغتين الأردية  
والفارسية من بين أعظم الأشعار في العصر الحديث،  
كما عرف بإسهاماته في فلسفة الإسلام الدينية  
والسياسية، وقد ترجمت أشعاره إلى عدة لغات.  
ومن روائع إقبال في كتابه «أسرار خودي» نختار  
هذه الأبيات المعبرة:

«إن قلب المسلم عامر بحب المصطفى ﷺ،

وهو أصل شرفنا، ومصدر فخرنا في هذا العالم،

إن هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى،

كان يرقد على الحصير،

إن هذا السيد الذي نام عبيده على أسرة الملوك

كان بيت ليالي لا يكتحل بنوم.

لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد،

فكان أن وجدت أمة، ووجد دستور، ووجدت

دولة،

إذا كان في صلاة فعينهاه تهملان دمماً، وإذا كان

في الحرب فسيقه يقطر دمّاً» ■